الديمقراطية و العلمانية في الخطاب العربي المعاصر

جورج طرابيشي أنموذجا

دليلة كبور / جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله.

إشراف :د.رضا شريف

مخبر: الجماليات والفنون المعاصرة

الملخص:

من ابرز القضايا الإشكالية المطروحة في العالم الغربي و العربي ، ما تعلق بالعلمنة و الديمقراطية و مسائل التحديث و العقلنة و هي مواضيع يسلط عليها الضوء في مراكز البحوث العالمية. و من أكثر المواضيع طرحا في عالم الفكر العربي المعاصر، ويعتبر طرح *جورج طرابيشي * من الاطاريح المميزة في المسالة، إذ حاول تصحيح المنظور الكلاسيكي للديمقراطية ، من خلال الدعوة إلى عقلنة الفعل الديمقراطي و نادى بضرورة انتهاج سبيل العلمنة بكل مستوياتها، لأنها الضامن الوحيد لتحقيق الإقلاع الحضاري، هذا الأخير لا يتأتى إلا من خلال فصل الدين عن السياسة و فصل السلطة عن المجتمع المدني، بكل هذا نستطيع إخراج الأمة العربية من مأزق التعصب و التخلف الذي يسيطر على الحياة الفكرية و السياسية العربية .

الكلمات المفتاحية:

الديمقراطية ، العلمانية ، الدين ، السياسة ، المجتمع المدني .

مقدمة:

يبدو جليا الحيز الكبير الذي أولاه المفكر السوري * **جورج طرابيشي** * لمسألتي: الديمقراطية و العلمانية إذ اعتبرهما من محددات الفكر السياسي العربي المعاصر ، غير أن طرابيشي في الأخير انتصر للعلمانية مقابل الديمقراطية، فهي السبيل الوحيد الذي يجعلنا ننتقل إلى العالم الحداثى بشكل سلس، إنه من العيب بما كان الدعوة إلى تبني الديمقراطية السياسية في ظل غياب الديمقراطيات الفكرية و الاجتماعية و غيرها .

من هنا نتساءل : ما الذي جعل جورج طرابيشي يعزف عن الطرح الديمقراطي الذي تبناه مختلف المفكرين العرب، و يتجه إلى الطرح العلماني. ؟

- كيف نجعل الفرد العربي يمارس الفعل الديمقراطي بشكل سلس .؟
- ما الذي يتوجب إضافته للفعل الديمقراطي لكي يصبح ذا فعالية ؟
- ما هي العلمانية و ما هي جذورها التاريخية ؟
- كيف نجعل العلمانية في خدمة الفرد العربي ؟
- هل فصل الدين عن الدولة يحقق الازدهار و الرقي ؟
- ما هي مستويات العلمانية و كيف يمكن أن نحققها في البيئة العربية؟

هذه الاسئلة و أخرى سنجيب عنها في مقالنا هذا .

أولا : الديمقراطية بين الفعل و الجمود عند طرابيشي.

جاء التصور الطرابيشي للفعل الديمقراطي العربي أكثر عمقا من المفكرين الذين تناولوا هذا الموضوع ، إذ اعتبر الديمقراطية من بين الإشكاليات إلحاحا في الساحة الفكرية و السياسية العربية " و التوكيد على الطابع الإشكالي يجد تبريره هنا في كون الديمقراطية يُرفع شعارها و يتم الترويج لها في العالم العربي .... كما لو أنها أيديولوجيا خلاصية جديدة فالعرب ... يراهنون الآن على الديمقراطية مثلما راهنوا في الأمس على الاشتراكية و قبل الأمس على الوحدة"[1] .

و يتوجب علينا تبيان طبيعة الديمقراطية لكي تتضح الصورة التي نريد إيصالها.

فالديمقراطية في اللغة الفرنسية مركبة من كلمتين :" ديموس/ كراتوس " و تعني حكم الشعب نفسه بنفسه. و كان بركليس أول من أطلق هذه التسمية و هذا كان قبل خمسة قرون قبل الميلاد .

---

* 1- كاتب و مفكر سوري ولد في مدينة حلب بسوريا سنة 1939م تحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي ،ثم تحصل على شهادة الماجستير في التربية من جامعة دمشق كما عمل مديرا لإذاعة دمشق كما تقلد منصب رئيس تحرير عديدي المجلات وله العيد من الكتب التي أثرت الفكر العربي .

[1] جورج طرابيشي :هرطقات عن الديمقراطية و العلمانية و الحداثة و الممانعة العربية، دار الساقي، بالاشتراك مع رابطة العقلانيين العرب، بيروت ط1 ،2006، ص.9

و"قد ترجم الفرابي لفظ الديمقراطية بالمعنى اليوناني الأصلي للكلمة ب: (الجماعة) و نظام الحكم الديمقراطي (المدينة الجماعية) ولا يعثر لهاتين العبارتين على أي أثر في الثقافة العربية،خارج النصوص الفلسفية التي تعرض أو تلخص أراء أفلاطون السياسية ، و هكذا يمكن أن نسجل بداية الحكم الجماعي أو حكم الشعب لنفسه بنفسه تصوران غائبان تماما عن أفق التعريف السياسي في الإسلام." [2]

بالحديث عن الجذور اليونانية للديمقراطية فإن جورج طرابيشي شرّح التراث السياسي اليوناني ، و عرى التصورات الوردية لما تداول عن الديمقراطية اليونانية التي ظهرت مع "بركلس" (495-429ق م)، و هو من كبار رجال الدولة الأثينيين، إذ رأى أنه كرس لنظام القبيلة بشكل أو بأخر، لان طبيعة تقسيم المناصب السياسية و العسكرية يتطلب ذلك، "الديمقراطية الأثينية تحمل في إسمها بالذات أصلها القبلي ،ف ديموس (dèmos) باليونانية مثلها مثل شعب بالعربية تعني قبيلة أو عشيرة قبل ان تعني شعبا ."[3]ليس هذا فقط بل كانت ديمقراطية مباشرة لانيابية كما أنها تختص بفئة معينة يحق لها ممارسة الفعل الديمقراطي و هم نخبة المجتمع من سكان اثينا الاثرياء فهي ديمقراطية مأجورة تعمد إلى شراء الأصوات ، و هذا يتطلب وضع إقتصادي مزدهر و لهذا "كانت مشروطة ببقاء الامبراطورية "[4]. فإذا كانت جذور الديمقراطية الغربية غير متينة، كيف يمكن تبني هذه النظم التي تحتاج إلى تقويم ،و إلى إعادة هيكلتها من جديد .

وقد عمد طرابيشي إلى طرح إشكاليات جدلية لي توضيح موقفه من الديمقراطية و بالخصوص في الوطن العربي .

1 إشكالية المفتاح و التاج:

هنا تساءل طرابيشي هل الديمقراطية هي المفتاح السحري الذي تفتح به جميع الأبواب المغلقة أم هي عكس ذلك التاج الذي يتوج التطور العضوي للمجتمع المعني و ينهض مقياسا على مستوى تطوره [5] .

يجيب عن هذه التساؤلات إذ يشبه الفعل الديمقراطي بالتاج ،الذي يكلل به رأس البطل ، فهي في تصوره جائزة تنال و تكتسب و ليست مفتاحا بحد تعبيره ، فالمفتاح الحقيقي هو الذي نلج به

---

[2] محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، بيروت، 1997،ص71.

[3] جورج طرابيشي: نظرية العقل :دار الساقي ،ط1،بيروت ،1998،ص327.

[4] المصدر نفسه،ص332.

[5] جورج طرابيشي ،هرطقات :عن الديمقراطية و العلمانية و الحداثة و الممانعة العربية ، دار الساقي،ط1، بيروت 2006،ص9.

أبواب الحداثة الغربية ، فالديمقراطية وفق تصور طرابيشي هي الفعل الذي يمر بمراحل مريرة و تجارب قاسية إذ استشهد بعديد التجارب الغربية القاسية للفعل الديمقراطي.

" فقد كانت ممارسة الديمقراطية حتى في مسقط رأسها و في لحظات بعينها من تاريخ أوروبا الغربية ...ممارسة جديرة بالوصف بأنها جهنمية أكثر منها فردوسية . نستطيع هنا الاستشهاد بالديمقراطية الأمريكية في عهد المكارثية ،و بالديمقراطية الفرنسية في عهد الجمهورية الرابعة ."[6]

2 إشكالية الثمرة و البذرة:

في هذه الإشكالية تكملة للإشكالية السابقة،و يشبه طرابيشي الديمقراطية العربية بالثمرة اليانعة ، و ليس البذرة بحد ذاتها ، فالثمرة لكي نقطفها يتوجب علينا رعايتها و العناية بها لتكون في أحسن حال وهذا لا يتأتى إلا من خلال عمل مستمر و جاد. و "قولنا أن الديمقراطية بذرة قبل أن تكون ثمرة ،فهذا معناه أنها تحتاج ، حتى تنمو و تونع إلى جهد إلى عمل ، إلى شغل في النفس و في تربة المجتمع،و قد يكون كم الجهد المطلوب مضاعفا عندما يتم استزراع بذرة الديمقراطية بالمثاقفة"[7]، و عندما تزرع هذه البذور في بيئة غير بيئتها المناسبة فلن نجني غير التعب لأنها ستتحول إلى جسم ضار كالأعشاب الضارة .

و يورد طرابيشي في خضم شرحه لهذه الإشكالية مفردة "خطيئة" ،التي يربطها بإقتصاد المعجزة ، خطيئة مقرونة بتصورات حول الديمقراطية التي تأتي على أكف الراحة[8] ، "خطيئة التوهم بأن المجتمعات العربية ستستيقظ ذات يوم فجأة مع الديمقراطية ، و بالديمقراطية ، لتجد نفسها وقد نفضت عنها رداء التشرذم و التخلف" [9]، في تصوره فإن الديمقراطية شرط ضروري من شروط الإقلاع الحضاري و السياسي ، لكنه غير مكتمل مازال يحتاج لدعائم تُقوم عوده و تسند أركانه لتحقيق الآمال المرجوة في بلداننا العربية .

3 إشكالية مفتاح المفتاح:

كما أشرنا سابقا فالديمقراطية رافد من روافد النهضة لكنها تبقى ناقصة ،فهي تعني حصرا الديمقراطية التمثيلية، التي هي في الأساس من مفرزات الحداثة و من إختراع الطبقة الصانعة للحداثة ، أي البرجوازية ... نستطيع أن نقول في شبه يقين إن الديمقراطية و إن لم تتواجد حيثما تواجدت

---

[6] المصدر نفسه ،ص11.

[7] جورج طرابيشي: هرطقات، مصدر سابق، ص11.

[8] المصدر نفسه،الصفحة نفسها

[9] المصدر نفسه ،ص 11

البورجوازية ، فإنها تغيب حيثما غابت، فالمجتمعات العربية تدفع ضريبة تغييب لطبقة البرجوازية و إفقادها اعتبارها الإيديولوجي.[10]

4 إشكالية الشرطي و رجل المباحث:

لطالما إرتبط ذكر الشرطي أو جهاز الأمن بالقمع و الطغيان هذه هي الصورة النمطية لمؤسسات الدولة العسكرية في الوطن العربي ، هذا السبب الذي جعل القطيعة بين الشعب و السلطة ، و هذا راجع إلى " إنفراد الدولة بتقرير مصائر بدون أن تكون للشعب أية قدرة على مقابلة التحكم بمقاليد الدولة "[11]، هذا هو التصور العام السائد في الأقطار العربية ذي الصبغة الشعبوية على حد تعبيره ، و بالتالي هذه الإشكالية ماهي إلا تحصيل حاصل، فهي " نتيجة شبه آلية لطغيان حضور الدولة و غياب أو تغييب السؤدد الذاتي للمجتمع المدني في معظم أقطار العالم العربي"[12]

أثبت طرابيشي أن رجل الشرطة هو خادم للفعل الديمقراطي و ليس كما يروج له الشعبويين ، و أنه لابد من إعادة النظر في القوانين التي تحتكم إليها الدول ، و إخراج السلطة من أروقة المخابرات لنستطيع الحديث عن فعل ديمقراطي واقعي يندمج فيه المجتمع المدني بكل أطيافه مع السلطة التي يكون هدفها الأول و الأخير خدمة الشعب .

5 إشكالية الذئب و الحمل :

وهي صيغة مبطنة لما طرحه في الإشكالية السابقة ، فالحل هو الدولة ، طرابيشي دعا إلى ضرورة إخراج المجتمعات العربية من القوقعة التي إحتجزت داخلها بإنبطاحها و بالمقابل تغول السلطة و تسلط الحكام ، إذ يتوجب على السلطة التحلي بالنزاهة و على الشعب ان يكون واعي و متحضر ، و يتوجب على كل فرد أن يمارس مواطنته بكل جرأة بعيدا عن الخوف أو الخيانة.

6 إشكالية الصندوقيين:

هذه الإشكالية من أكثر الإشكاليات طرحا و حضورا في عالمنا العربي "إشكالية صندوق الإقتراع و صندوق جمجمة الرأس، فالديمقراطية هي في الأخير ثقافة و منظومة قيم متضامنة وفي مجتمع لم ينجز تحديثه المادي و الفكري ولم يستكمل ثورته التعليمية... الديمقراطية ليس في صندوق الإقتراع وحدها ، بل ، كذلك ربما أولا في الرؤوس. فالديمقراطية لايمكن أن تكون نظاما فصاميا . فهي لا يمكن أن تكون نظاما للحكم بدون أن تكون نظاما للمجتمع ...فالديمقراطية هي بالأساس ظاهره مجتمعية ، و المجتمع هو في المقام الأول نسيج من العقليات."[13] فالرأس هو الذي يحمل الفكر الحر

---

[10] المصدر نفسه ،ص12.

[11] المصدر السابق ،ص14

[12] المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[13] جورج طرابيشي :هرطقات مرجع سابق ص17

قبل صندوق الاقتراع و عليه فالتجربة الديمقراطية يجب أن تتخمر في الرأس قبل صندوق الاقتراع. لكن الواقع عكس هذا التصور لأن " الأنظمة العربية لا تتحمل انتخابا حرا، ولكن المجتمعات العربية لا تتحمل رأيا حرا ، و مجتمع يريد الديمقراطية في السياسة و لا يريدها في الفكر ولا على الأخص الدين، و لا بطبيعة الحال في العلاقات الجنسية ،هو مجتمع يستسهل الديمقراطية و يختزلها في آن معا .ومن الاستسهال –كما من الاختزال – ما قتل."[14]

و خلاصة القول أن :" الاستبداد عندما يسد المنافذ ، لا يترك غير منفذ واحد مفتوح هو الدين، و عندما تسد أبواب السياسة على الناس و تمنعهم من العمل السياسي تشل الديمقراطية و النتيجة أن الاستبداد اليوم هو أكبر خادم للنزاعات الدينية و الأصولية في المجتمعات العربية." [15]

من هنا تساءل "جورج طرابيشي" عن معيقات و مثبطات الفعل الديمقراطي العربي و لخصها في عاملين أساسين هما :

1 النزعة الطائفية:

أرجع طرابيشي مشكلة قتل التجربة الديمقراطية في الوطن العربي إلى العائق الكبير الذي تعاني منه المجتمعات العربية، وهي الطائفية الدينية ،إذ أنها تقسم الصرح المجتمعي هذا ما يعيق التجسيد الفعلي للأسس الديمقراطية ، في ظل تجذر و تغلغل هذه الطوائف الدينية في المجتمعات العربية و خاصة الشرقية منها، وأن أي محاولة لتبني الديمقراطية في ظل مجتمعات منقسمة طائفيا هو عبث سياسي .و هنا طرح تساؤلا : هل يمكننا علاج الداء بغير دوائه ؟.[16]

يجيب هنا أنه لا يمكن تجسيد ديمقراطية فعلية في ظل تغول الطائفية لأن الناخبون سينقادون إلى التصويت على ممثليهم الذين يتشاطرون معهم نفس مذهبهم الديني ، و هنا نكون قد أخللنا بشرط من شروط الديمقراطية لأنها تقتضي وجود خصم ، في حين تكون المنافسة في ظل الطائفية قائمة على مفهوم العدد.[17]

2- اللوبية الدينية:

يعتبرها طرابيشي مرضا فتاكا في ظل نموها السريع و انتشارها الرهيب خاصة و أنها تمول بأموال ضخمة من ريع البترول ، هذا ما يجعلها لا تتوانى في الدخول في صراع عميق مع مبدأ المبادئ في منظومة القيم الديمقراطية و نعني هنا حرية الرأي و الاعتقاد ، كما أنها تستعمل سلاح خطير و

---

[14] المصدر نفسه ، ص18.

[15] سليمان بختي : جورج طرابيشي ،حول العلمانية في الإسلام و المسيحية ، إعداد و تنسيق :مكتبة التنوير ،صحيفة النهار ،2005،ص7،

[16] جورج طرابيشي : هرطقات 2،دار الساقي مع رابطة العقلانيين العرب ط1،بيروت لبنان،2008،ص90.

[17] جورج طرابيشي : المصدر السابق،ص90 91 .

قاتل ألا و هو :" التكفير" هذا الأخير له سطوة كبيرة في العقيدة الإسلامية بمختلف أطيافها، لذا تعمد كل من السلطة الحاكمة مع هذه الطوائف إلى تبنيه لتتفنن في استعمال كل أشكال العنف و الترهيب على باقي أطياف المجتمع ، فحركة الفكر و الاعتقاد هي بين فكي كماشة : رقابة حكومية سياسية و رقابة شعبية دينية .[18]

في الأخير يقر جورج طرابيشي أن الديمقراطية وحدها لا تكفي لتغيير حال الأمة العربية و إخراجها من المأزق السياسي الذي وقعت فيه،و لهذا اقترح حلا بديلا من شأنه كسر هذه الحواجز التي تعيق الفرد العربي من الإنعتاق و الحرية.

ثانيا: العلمانية ضرورة مستعجلة تقتضيها الأوضاع العربية .

العلمانية من المفاهيم الجديدة الوافدة إلى الثقافة العربية فهي:" من ثمار فلسفة الحداثة ، فلسفة الحداثة السياسية أساسا، و لم يتشكل هذا المفهوم دفعة واحدة ، و إنما خرج إلى عالم الفكر السياسي على التدرج ، حتى وإن خضع في مراحله الأولى لمبدأ القطع مع الفكر الديني التقليدي أو هيمنة إحدى السلطتين السياسية أو الدينية ، أو أحدهما على الآخر."[19]

وقد شاع في الأدبيات الغربية و العربية الربط بين العلمانية و الديمقراطية ، و كذلك شيوع قيم التسامح ما جعل منها حالة متحدة متراصة مع بعضها البعض، و تحدث جون رولز عن العلمانية و إعتبرها شرطا أساسيا و لازما لتأسيس ما يسميه بالوفاقات المعقدة فهي الضامن و حجر الأساس المؤَسس لعصر الحداثة السياسية ، فالمجتمعات ما قبل الحداثة على حد تعبير رولز تتسم بحالة من الصراع المزمن ، من الصراع الديني و التدابر السياسي العنيف بحكم عجزها عن تلمس طرق الوفاق و توليف المصالح المتضاربة، على عكس المجتمعات المحدثة فإنها تتسم بقدرة فائقة على السيطرة على معضلة الانقسام الديني و السياسي استنادا إلي مبدأ حيادية الدولة ، ثم باعتماد آليات وفاقية بين الأفراد و المجموعات بصورة عقلانية خارج حلقة المنازعات الدينية و المذهبية ، أي استنادا إلى الخيار العلماني الحيادي.[20]

تقف البلدان العربية عاجزة عن معالجة المستويات الاجتماعية ، و بناء السلم المدني المفقود، ومن علامات ذلك أن العلمانية في هذه المنطقة العربية و الإسلامية لم تكن مرتبطة في أي

---

[18] جورج طرابيشي: هرطقات، مصدر سابق،ص16.

[19] مصدق الجليدي:الإسلام و الحداثة (السياسة بناء العلمانية و الديمقراطية و حقوق الإنسان)،مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ،ط1،بيروت ،2010،ص20.

[20] رفيق عبد السلام:دراسات حضارية في العلمانية و الدين و الديمقراطية المفاهيم و السياقات، مركز الجزيرة للدراسات مع الدار العربية للعلوم ناشرون، مطابع الدار العربية للعلوم ،ط1بيروت 1429 هـ ص10

وقت من الأوقات بحيادية الدولة إزاء المجال الديني ، أو استقلالية الحقل العمومي عند التدخل الشطط للدولة ، بقدر ما جلبت معها قدرا غير قليل من التسلط السياسي و القهر الاجتماعي .[21]

إذن فالحاجة ماسة لتبني الطرح العلماني لأنه أصبح ضرورة ملحة جدا في عالمنا العربي، من هنا نتساءل : كيف نظر طرابيشي للعلمانية ؟ و ما هي الدعائم التي ترتكز عليها.؟ يقر جورج طرابيشي بأن الخطاب العربي الحديث و المعاصر يتميز ب:"قدرته الهائلة على الإستدماج السريع للمصطلحات الإيديولوجية ، فقبل قرن ، لا أكثر كانت اللغة العربية تجهل مئات المفاهيم التي باتت لها الغلبة في الخطاب العربي الحديث من قبيل القومية و الأممية و الرأسمالية و الاشتراكية و الليبرالية و الفاشية و الرومانسية و السريالية و البنيوية و اللاأدرية ...الخ"[22]،و بالمقابل كانت هناك مفردة واحدة لم تحظى بالقبول ألا و هي: ***العلمانية*** .

يرى طرابيشي أن كل المعارضين للعلمانية ،سواء كانوا يتبنون التيار الحداثي او من دعاة القداسة على إعتبارها نموذجا لإشكالية مستوردة و بالنسبة لهم العلمانية رأت النور في الغرب و تحديدا الغرب المسيحي حصرا الصراع اللاهوتي السياسي [23] من هذا المنطلق أسس طرابيشي لطرحه العلماني من خلال العودة إلى الجذور الإسلامية للعلمانية .

1 بذور العلمانية في الإسلام :

يعتبر طرابيشي الحديث عن العلمانية في الإسلام هو بمثابة جرأة زائدة عن حدها ، و هذا راجع لما يشوب هذه المفردة من التباس بسبب عدم تقبلهم لها،" فهذه الكلمة قد غدت ، بألف و لام العريف ، هي الكلمة الرجيمة في الخطاب العربي المعاصر ،فخولتها من انتهاك المقدس قد جعلتها ترادف الكفر الصريح و الإلحاد الموجب لمعتنقه عقوبة القتل ."[24]

و هذا ما رأيناه على أرض الواقع ، و لعل أبرز مثال يعرفه القاصي و الداني هي قضية مقتل المفكر المصري " فرج فودة " ، قتل لأنه تبنى العلمانية و نادى بها ، فكانت جريمته فكرية و لما سأل القاضي الإسلاموي الذي قتله لماذا قتلته؟ فأجاب : لأنه علماني ، وحين سأله القاضي ماذا تعني كلمة علماني ؟ كانت إجابته بأنه لا يعلم معنى كلمة العلمانية .

كما نجد المفكر المغربي محمد عابد الجابري يرى أن العلمانية مفردة رجيمة تتوجب إزالتها من قاموس الفكر العربي المعاصر .[25]

---

[21] المصدر نفسه،ص11.

[22]جورج طرابيشي هرطقات ،مصدر سابق ،ص205.

[23] جورج طرابيشي هرطقات 2 ،مصدر سابق ، ص9..

[24] جورج طرابيشي ، هرطقات، المصدر السابق ،ص19.

[25] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

طرابيشي كان على النقيض من موقف الجابري، فقد دافع عن العلمانية باعتبارها مخلصة من آلام السياسة و سطوة الدين، و قد نبش طرابيشي كل التراث السياسي الإسلامي لكي يثبت بأن الإسلام يحمل في طياته بذور العلمانية و بالفعل توصل إلى أحاديث توازي الحديث الإنجيلي" أعطوا ما لقيصر لقيصر و ما للّه للّه "، هذه المقولة التي يعتمدها الغرب في تأسيسيهم للعلمانية ، من خلال فصل الدين عن السياسة ، ففي الرواية الإسلامية يعتبر طرابيشي حديث النبي(صلى اللّه عليه وسلم) بخصوص حادثة تأبير النخيل ، حين كان مارا بأحد أحياء المدينة فسمع أزيزا فاستغربه .فقال: ما هذا ؟ فقالوا له:النخيل يؤبرونه بمعنى يلقحونه .فكان جوابه و هو الذي لم يمتهن هده المهنة قط " لو لم يفعلوا لصلح"،فما كان منهم إلا أن أمسكوا عن التأبير ، فجاء النخل شيصا ، وكيف له أن يثمر ولم يلقح ، و لما إرتدوا إليه يسائلونه قال قولته الشهيرة : "أنتم أعلم بأمور دنياكم "، وقد روي هذا الحديث بعديد الصيغ لعل أبرزها :" ما أنا بزارع ولا صاحب نخل ،فما حدثتكم عن اللّه فهو حق ، و ما قلت فيه فهو من قبل نفسي ،فإنما أنا بشر أخطأ أصيب "كذلك : "إذا كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم ،و إن كان شيئا من أمر دينكم فإلي" .[26]

من هذا المنطلق ربط جورج طرابيشي الإسلام بالمسيحية إذ ان الأمر لا يختلف كثيرا عن بعضه فضرورة التمييز بين ما هو ديني و ما هو أخروي و بين الزمني و الروحي . و أن الفارق بين الإسلام و المسيحية هو في التجربة و ليس في البذور، فالمسيحية بقيت مجرد ديانة روحية لمدة ثلاثة قرون كاملة ، ولم تعرف معنى الدولة إلا مع اعتناق قسطنطين المسيحية ،و عمد على تنصير كل ربوع دولته ، ليواصل الإمبراطور ثيودوسيس الأول ما بدأه قسطنطين ، و هذا بإصدار المرسوم الذي يقر المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية و هذا سنة 380 م. [27]

أما في الإسلام فلم يستغرق إلا ثلاثة عشر سنة، و التي يمكن حصرها بالفترة المكية للنبي(صلى اللّه عليه وسلم)، إذ عرف الإسلام " مسارا علمانيا مبكرا لم تعرفه المسيحية ... حيث أنه دمج في وقت مبكر الدين و السياسة ، فإن كانت العلمانية تعني فيما تعميه لا فصل السياسي عن الديني فحسب ، بل إعطاءه أيضا السؤدد. فإن التسييس المبكر للإسلام قد جعل مسلمي الصدر الأول يعطون الأولوية في الممارسة العملية على الأقل للدنيوي على الأخروي."[28]

لكن بالرغم من وجود هذه البوادر الأولى للعلمانية في الإسلام لم يستفد منها العرب و لم توظف بشكل جيد ، فمادام الفرد العربي لم يتبنى الأسس المعرفية و يتمرد على كل ما هو لاهوتي

[26] المصدر السابق ، ص19 20 21.

[27] المصدر نفسه ،ص 21 22.

[28] المصدر نفسه ، ص 22.

مندمج في السياسة لن تقوم لهم نهضة أبدا، و الحل هو تبني النموذج الغربي يقول طرابيشي في حوار له نشر فيه جريدة النهار سنة 2005أنه " قد آن الأوان ليظهر الإسلام الروحي فينحني جانبا الحاكمين و المعارضين و رجال الدين ، الروحنة هي مدخل الإسلام إلى الحداثة ، و عندما يحدث ذلك لن نرى ردود فعله الحالية ، من عنف و كره و رفض للحداثة"[29].

ثالثا : تجليات العولمة على الدين و المجتمع المدني .

بين طرابيشي كيف أن العلمانية ضرورية و شرط جوهري في عملية الإقلاع الحضاري للمجتمعات البشرية كافة و العربية خاصة ، وهذا من أجل القضاء على مشكل الطائفية و العرقية و الحروب في البلدان العربية.

1 العلمانية و الدين :

عندما يثار موضوع العلمانية فإنه دائنا ما يتم الفصل بين عنصرين هامين هما: "الدين" و" الدولة" وهذا من أجل تسوية العلاقات بين الأديان المختلفة ، كما لها وجها آخر يهم العالم الإسلامي و ذلك من حيث أنها عنصر فاعل و أساسي في جدلية التقدم و التخلف[30] ، هذا ما يجرنا للحديث[31]عن الحداثة و ضرورة تبينها للخروج من دائرة التخلف .

وافق طرابيشي موقف مرسيل غوشيه من الحداثة فقد أقام غوشيه علاقة بين التحديث و العلمنة فهي علاقة ترادف و تكامل بحيث كلاهما يدعوان إلى ضرورة الخروج من الدين ، و بهذا يكون الغرب المسيحي سباقا في فصل الدين عن الحياة السياسية و بهذا حققوا التحرر من القيود الدينية.[32]

بواسطة هذه القطيعة تجسدت العلمانية و" هي ما يمكن أن نطلق عليه اسم العلمنة ... التي نستطيع أن نعرفها ... على أنها جهاد في سبيل الدنيا كخيار بديل عن الجهاد في سبيل الآخرة".

اعتبر طرابيشي الحداثة شرط فاعل لدفع الحضارة إلى مراحل متطورة من التقدم، ولذا دعا إلى ضرورة تبني النموذج الغربي وإعطائها صبغة خاصة ، وذلك من خلال تبسيطها في عشرة مستويات للعلمانية وهي :

1 العلمنة الدينية : هنا يبرز كيف كسر" مارتن لوثر" حواجز الكنيسة الكاثوليكية للإيمان الديني، بجعله مسألة شخصية ، وعلى العقل البشري تأويل وقراءة هذه النصوص ، وبهذا اقترن الإصلاح البروتستانتي بثورة فعلية على صعيد محو الأمية و تحرير العقل و الفكر من سطوة رجال الكنيسة.[33]

---

[29] سليمان بختي : جورج طرابيشي حول العلمانية في الإسلام و المسيحية ، مرجع سابق ،ص6 .

[30] جورج طرابيشي :هرطقات 2،مصدر سابق ،ص97.

[31] المصدر نفسه ، ص 98.

[32] المصدر نفسه ،ص99.

[33] جورج طرابيشي ،هرطقات 2 مصدر سابق ،ص99.

2 العلمنة الثقافية : كانت ثورة ذات طابع أدبي ثقافي فبوادر التغيير بزغت مع "بوكاشيو" مؤلف "الديكاميرون "في القرن الرابع عشر ، ثم مع "رابليه " المعروف بمؤلفه "غرغنتوا" في القرن السادس عشر وبهذا أنعتق الفكر الأدبي من ربقة التصور الديني للعالم و أطلق العنان للروائع الأدبية التي تغوص في عمق الإنسان. [34]

العلمنة اللغوية : كانت بتحرير الشعوب الأوربية من اللغة اللاتينية التي ترمز بشكل مباشر إلى لغة الدين و لغة الكنيسة ، و استبدالها باللغات العامية .

العلمنة الإنسانية: فيها تصالح مع الحقب الزمنية الماضية بإعادة إحياء التراث اليوناني و الروماني و استلهام العبر منه ، باعتباره كنزا من الكنوز الأدبية العالمية الجديرة بالقراءة .

5 العلمنة العقلية: تحققت هذه الأخيرة بإعادة الاعتبار للتراث العالمي و خاصة اكتشاف الفلسفة اليونانية وبهذا عاد الحكم للعقل البشري واعتباره الفيصل لأنه يمثل نقطة البداية والنهاية كونه الوحيد الذي له عقل ، و بالتالي ينتج العلوم و المعارف بنفسه و لنفسه بواسطة ملكة العقل.[35]

العلمنة العلمية : يقصد بها الحركة الواسعة التي شهدتها العلوم والمعارف خاصة مع وبعد الثورة الكوبرنيكية في دراسة الكون لتليها عديد الأبحاث مع غاليلي وداروين و غيرهم من العلماء و بالتالي تحقق الانعتاق من الفكر الخرافي .

7 العلمنة الطبقية: هي التي أفرزت ظهور الطبقة البرجوازية و التي دعت إلى الانعتاق من القيود الاجتماعية و السياسية والدينية ، فهي مستقلة بذاتها ولذاتها ، و هي منشأ الديمقراطية .

8 العلمنة القانونية: بدأت بظهور إعلان حقوق الإنسان الذي نصت عليه "الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية ليحول المركزية من اللّه إلى الإنسان، ولينتقل مبدأ السيادة وحق التشريع من اللّه وخلفائه على الأرض إلى الأمة وممثليها في المجلس النيابي."[36]

9 العلمنة السياسية : بموجبها ظهرت الدولة القومية أو الدولة و فرنسا كانت سباقة في ذلك ، ثم انبثقت عديد الدول في أوروبا و في العالم لاحقا ، وهذا ما كان أن يكون لولا أن ضعفت سلطة الكنيسة و بديهي أن تبلور مفهوم الدولة القومية جاء نتيجة مخاض طويل تمثل أولا في تقلص السلطة الزمنية و الرقعة الجغرافية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ثم ظهور الممالك السلالية التي

---

[34] المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

[35] المصدر السابق ، ص 100.

[36] المصدر نفسه، ص102.

صادرت من البابا حق الحكم الإلهي وهذه المرجعية الإلهية المعلنة فإن الممالك السلالية قد مهدت لتعلمن ولتقومن الدولة في أوروبا[37]

10 العلمنة الجنسية : في هذه العلمنة تنعتق العلاقات الجنسية بين الرجل و المرأة من ضابط الخطيئة أو الحرام و هنا يكون الفرد مستقلا بجسده و يمتلك زمام أموره ،" فيمكن القول أن العلمنة الجنسية جعلت من الإنسان سيد جسده مثلما جعلت منه العلمنة العلمية و الفلسفية سيد عقله".[38]

من خلال سلسلة العلمنات السابقة الطرح بين طرابيشي أن المعركة الأولى هي معركة الوعي و تحرير العقل من سلطان الدين و رجال الدين للإنعتاق من قبضة الأوهام ، و من سيف الاتهام الذي يسلط علينا باسم الخطيئة أو الحرام .

2 العلمانية و المجتمع المدني :

تبنى طرابيشي طرح المفكر الفرنسي "موريس باربيه" وهذا من خلال قراءته لكتابه الشهير "العلمانية "، و قد ركز باربيه في كتابه هذا على ضرورة فصل الدين عن الدولة و التأسيس لدولة لا دينية ووصف طرابيشي هذا الكتاب بالأصيل كونه ربط بين العلمانية و الحداثة السياسية .[39]

العلمانية الحقة هي التي تتعدى فصل الدين عن الدولة إلى فصل الدولة عن المجتمع المدني، فالعلمانية في نهاية المطاف لا تتطلع إلى تحرير المجتمع من الدين ، بل إذ تكف يد الدولة عن المجال المجتمعي و عن المجال الديني معا ، تكفل أكبر قدر من الحرية الدينية للأفراد والجماعات معا ففي ظل العلمانية فحسب يستعيد الدين مجال فاعليته في المجتمع .[40]

خاتمة :

مما سبق طرحه تتجلى لنا الفكرة التي قدمها المفكر السوري جورج طرابيشي، بمحاولته تسليط الضوء على عوائق و مثبطات الإقلاع الحضاري العربي المعاصر ففي ظل الأوضاع الراهنة التي تعيشها المنطقة العربية من تناحر واقتتال مستمر، بسبب النعرات الطائفية والمذهبية والتي يدفع ثمنها دوما الفرد العربي الضعيف و لهذا السبب شرح طرابيشي بنية الفكر السياسي العربي الذي يعاني من اختلال في منظومته ، قدم اقتراحا بديلا تجاوز به الطرح الديمقراطي الذي إعتبره ناقصا ويحتاج إلى دعامة ثانية متمثلة في العلمانية، بواسطة عقد علماني قائم على التصالح مع الذات وتحرير العقول من المكتسبات الدينية والسياسية لضمان أكبر قدر من الحريات الفردية والجماعية.

---

[37] المصدر السابق ، ص 102 103.

[38] المصدر نفسه، ص 104.

[39] جورج طرابيشي ، هرطقات ، مصدر سابق،ص207 208.

[40] المصدر نفسه ،ص114 113.